القسم الخامس
الحكم الاسلامى ايام الدولة الفاطمية
عصر الولاة والارهاب

الحسن بن احمد بن ابي خنزير

لا بدع ان احدث انهيار الدولة الاغلبية ، وقيام الدولة الفاطمية ، اثرا عظيما فى البلاد الصقليه. على ان اواخر ايام الاغالبة لم تكن في صقلية ايام راحة وهدو واطمئنان ، فكانت حوادث افريقيا ضغثا على ابالة ، وكانت السنوات الاولى من انتصاب الحكم الفاطمى بالجزيرة ، ايام اضطراب سوداء ومذابح شنيعة ؛ان اسفرت عن شيء فمن خلاف جسيم وشقاق ذريع بين الجموع العربية التى كانت قوام دولة الاغالبة ، وبين الجموع البربرية التى ترى انها صاحبه الدولة ايام الفاطميين ، فقضت الجزيرة من جراء ذلك عصرا من اسوأ عصورها .

الا ان ذلك لم يدم طويلا ؛ وعاد الاستقرار بعد حين ، على يد بعض كرام الولاة فى اول الامر ؛ وعلى يد عائلة بني الحسن اخيرا .

عندما توطدت اقدام عبيد الله المهدي سنة ٢٩٧ فى ملك افريقيا ، ارسل من قبله واليا على صقلية، الحسن بن احمد بن ابى خنزير ، من زعماء البربر الذين ايدوا الشيعة الفاطمية ونصروها فدخل بالرمة دخول الفاتح المنتصر ، ولم يسر هنالك سيرة امير مسلم ، بل سار هنالك سيرة امير بربري ؛ فكانت اعماله كلها متجهة نحو بربرة البلاد ، وتوطيد دعائم النعرة العنصرية البربرية ، فسكت العرب اول الامر عن مضض ؛ وقد شعروا انهم قد خسروا بانهيار الدولة الاغلبية تفوقهم ونفوذهم

وشعر المسلمون الصادقون ، وكثير عددهم ، بان هذه النعرة الجديدة سوف تكون نواة الخراب والدمار اذ تحل الدسائس العنصرية والخلافات المذهبية محل الاخوة الاسلامية السالفة .

ولم يكتف الحسن بن احمد بمحاولة تغليب العنصر البربرى على العنصر العربى بل زادالطين بلة بمحاولة حمل الناس عامة على اعتناق المذهب الشيعى بدل الاكتفاء منهم بالطاعة السياسية تاركا لهم حرية الدين .

وما كانت هذه الاعمال لتنتهى الا بالانتقاض واراقة الدماء .

ثار العرب وثار معهم اهل السنة عامة فخلعوا طاعة الحسن بن ابى خنزير ، لكنهم لم يستطيعوا اعلان ما تكنه نفوسهم اذ ذاك ، ولم يجدوا القوة الكافية والزعامة الحقيقية للتخلص من السلطة الفاطمية ؛ فراسلوا المهدي معتذرين عن ثورتهم بسوء سيرة الوالى وفساد اعماله ، وافن رايه ، وما تسبب فيه من فتن هوجاء بين المسلمين .

على بن عمر البلوى

تقبل المهدى على كره منه اعتذار مسلمى صقلية ، فاعلن عزل الحسن ، واولى مكانه علي بن اعمر ، سنة ٢٩٩ ، وكان شيخاً هرماً ، لين العريكة ، كريم الاخلاق أراد ان ياخذ الناس بالحسنى ، وان يقابل الفتن باسداء النصائح ، وكانت القبائل البربرية التي قدمت البلاد والتي استقرت فيها من قبل ، قد التفت حول الحسن وعلي ابني الوالى المعزول الحسن بن ابي خنزير ؛ فاصبح لهذين الولدين النفوذ المطلق والسلطة الحقيقية ، وسارا تحت سلطة الوالى الواهية ، على تنفيذ خطط ابيهما .

هنالك لم يجد العرب واهل السنة عامة مخرجا لهم من تلك المحنة الا اعلان الثورة ، بل اعلان الانقلاب والانتقاض على سلطة الفاطميين .

احمد ابن زيادة الله بن قرهب

جمعوا امرهم يومئذ وقاموا بحركة منظمة وعلموا انهم ما داموا على ولاء المهدى فالحالة لا يتطرق اليها ادنى تغير . ففى السنة الواليـة لولاية على بن عمر سنة ٣٠٠ رفعوا لواء العصيان وقبضوا على الوالى على بن عمر وعلى ولدى بـن ابى خنزيـر واركبوهما البحر الى افريقيا وبايعوا بالولاية احمد ابن زيادة الله بن قرهب وهو من قرابة الاغالبة .

الخلافة العباسية — كان احمد بن قرهب كارهاً للولاية حتى انه عندما رأى الناس اجمعوا على تقديمه فر من وجههم وآوى الى غار يحجبه عنهم فامعنوا فى طلبه واخرجوه من مخباه واقسموا له ليكونن فى طاعته وليموتن دونه فقبل الامـر اذ لم ير محيصا عن ذلك ، انما اشترط عليهم ان لا يتولى الامر الا معتمداً على الخـلافة العباسية نابذاً لدعوة الشيعة وما فيها من تعصب مذهبى وعنصري ؛ وهكذا كان فتولى الامارة معتزاً باهل السنة من عرب وبربر ، وراسل الخليفة المقتـدر بالله في بغداد يعلن القيام بدعوته ويضع امارته تحت نفوذه ؛ وجاءته رسل الخليفة تحمـل الالوية السوداء والخلع السود شعار الخـلافة العباسية . ثم وقف ابن قرهب وقفـة الامير الحازم والزعيم القوي الشكيمة الجسور في الحق ؛ فضبط الامور واستقامت له الاعمال وسكنت الفتن الظاهرة الا ما كان كامنا منهـا تحت الرماد .

رجوع الفاطميين واندحارهم — ما كان عبيد الله المهدي وما كانت فيائـل كتامة ومن لف لفها لترضى بخروج صقلية عن الامر ؛ واصباحها مركزاً للدعاية العباسية العربية السنية ؛ وادركوا ما فى ذلك من خطر جسيم على الدولة الناشئة فوقفوا للامر موقفا حازماً ورأوا اطفاء هذه الجذوة قبل ان يستفحل امرهـا .

جهز المهدى اسطوله وعمره برجاله الاشداء ووضع على رأسهم ابن ابى خنزير

بعد ان اعلن من جديد ولايته على صقلية ، وسار الاسطول فالتقى مراسيه في مدينة رمطة ، انما رجال ابن قرهب لم يكونوا غافلين فتلقوا ذلك الاسطول بما جمعوه لمثل ذلك اليوم من قوة ، والتقى الجمعان سنة ٣٠١ ، وفاز اهل صقلية فوزاً مبينا فاحرقوا اسطول المهدى واسروا ستمائة من رجاله وقبضوا على الحسن بن ابي خنزير نفسه وكان قد آلم من قبل نفوسهم واحدث فى قلوبهم ضغينة لا تنسى ؛ فقتله ابن قرهب تشفياً وانتقاما .

نذالة وسقوط — جهز المهدي حملة جديدة سنة ٣٠٣ ؛ سيرها على صقلية محاولة استرجاعها فباءت بفشل ذريع .

لكن المهدى ان لم ينصره اسطوله على صقلية فقد نصره فيها دعاة الهزيمة او رجال الكتيبة الخامسة حسب التعبير الحديث .

فقد قاموا يومئذ بدعاية واسعة النطاق تمكنوا من اقناع خاصة الناس وعامتهم بها اذ قالوا : ان المهدى لن يصبر عن اندحاره المتوالي فى صقلية وانه لا ريب راجم علينا باسطوله وخيله ورجله مما لا قبل لنا به ؛ فالراي الاسد هو اعلان التوبة والندم والرجوع لحكمه وخلع طاعة بنى العباس الذين لم نر منهم الا شعارهم الاسود ؛ ولا يستطيعون امدادنا بشيء .

وصل الامر لعلم ابن قرهب فجمعهم وذكرهم بما قطعوه له من عهود ومواثيق فما اغنى ذلك عنه شيئا وتصلبوا فى مرادهم فاستسلم امام ارادتهم واخذ يجمع اموالة ومتاعه وجهز مركبا يحمله مع ذويه الى بلاد الاندلس فراراً بنفسه .

قال رجال الكتيبة الخامسة : الاليق بكم هو ارسال ابن قرهب قربى للمهدي وتزلفا عليه يراها لكم بدأ ويعفو عما اسلفتموه من خلع طاعته ؛ فوجدوا من الدهماء اذنا صاغية ؛ وخالف بعض رجال الشهامة هذا الرأي الآفن ؛ فقامت من اجل ذلك فتنة بين الفريقين تغلبت فيها النذالة على الرجلة ؛ فالقي القبض على ابن

قرهب وارسل به هو وولده وقاضيه الى المهدى ؛ وطلبوا مقابل ذلك ان يرسل لهم المهدي واليا من قبله وقاضيا يحكم باسمه وهم يقومون فى بلادهم باعمال الضبط والجهاد ، اى انهم طلبوا نظام « الدومينيون » او الحكم الذاتي حسب الطريقة العصرية .

فى المحرم الحرام سنة ٣٠٤ (٩١٦) وصل ابن قرهب الى مدينة سوسة ووقف امام المهدى هو وولده وقاضيه ، وكان يعلم ما ينتظره فى مثل ذلك الموقف ، فاستجوبه المهدي ووبخه على مخالفة الدولة ونقض عهدها ، واقدامه على قتل الحسن ابن ابي خنزير فدافع ابن قرهب عن نفسه دفاع الضعيف وقال مما قاله : لقد اولاني الناس امرهم وانا كاره ثم عزلوني وانا كاره .

رأى المهدى يومئذ ان الحلم ربما اعتبر ضعفا ؛ وان زجر صقلية اصبح محتما بعدما ظهر منها ؛ فامر بابن قرهب وولده وقاضيه ان يضربوا ضربا مبرحا ؛ ثم قطعت ايديهم وارجلهم على قبر الحسن بن ابي خنزير ثم صلبوا ؛ وكانت هذه المعاملة الفظيعة التى فشا ذكرها فى طول البلاد وعرضها ، انذارا رهيباً لكل من تحدثه نفسه بالخروج عن الطاعة والانتقاض .

ابو سعيد الضيف موسى بن احمد

اما اهل صقلية فقد ارسل اليهم المهدى اجابة غريبة لمطلبهم : رجلا من زبانية البشر هو ابا الضيف موسى على راس اسطول قوي وجيش عتيد فنزل ارض صقلية فاتحا غازيا وراى اصحاب فتنة ابن قرهب ان النذالة لم تغن عنهم شيئا فجمعوا امرهم فى بلرمة وتحصنوا بها وامتنعوا عن ابي سعيد فجاءها ووقف على جدرانها وقفة الجبار العنيد ، وحاصرها اشهرا الى ان نفذ منها الزاد والصبر فافتتحها واطلق يد جنده من قبائل كتامة فانتهكت الحرمات واستباحت المحرمات وهدمت الديار وخربت المعالم واخذ ابو سعيد خيل القوم وسلاحهم والرفيع من متاعهم ، ثم ضرب عليهم

مغرما ثقيلا فادحا ، ولم يكفه كل ذلك من اعمال الزجر والتنكيل فاخذ وجوه القوم واعيان البلاد ، وبعث بهم اسرى الى افريقيا واراد الله بهم الهلاك فغرقت مراكبهم في البحر قبل وصولها .

وساد على الجزيرة يومئذ سكون هو سكون الموت ؛ وخضع الجميع للسلطة الفاطمية خضوع من لم يبق له فى فمه لسان ولا فى يمينه سنان ، وسكن رجال كتامة قرى وقصور المغلوبين واصبحوا اصحاب الحول والطول فى البلاد .

انتهت اعمال الزجر والتنكيل وعمرت المدائن والثغور برجال الدولة الجديدة فقفل الضيف (واي ضيف هو) راجعا الى القيروان بعد انجاز مهمته .

سالم بن راشد

ارسل به المهدي واليا سنة ٣٠٥ فكانت نيته متوجهة لاستئناف الجهاد وانجاز ما شرع به اسلافه من ولاة بني الاغلب من فتح جنوب ايطاليا .

الفتح فى جنوب ايطاليا — كان اسطول المسلمين قد اشتد باسه وقويت شوكته يومئذ ، وكان يقوده امير البحر ابو جعفر احمد بن عبيد ؛ فافتتح في قلورية مدينة واري Oria بعد معركة هائلة اسفرت عن مصرع ستة آلاف من النصارى واخرج من المدينة عشرة آلاف سبية ؛ واسر فيها بطريقا ؛ صالحه عن نفسه وعن مدينته بخمسة آلاف مثقال من الذهب ؛ ثم جاء قائد الاسطول يسلم للمهدى تلك الغنائم الباهرة ؛ فقال بعض رجال الحاشية : تالله ان الذي يؤدى هذا لهو الامين ! فاجاب المهدي : والله ما اعطاني من الجمل الا اذنيه !

ومن هنا تدرك ان عبيد الله المهدي كان كثير الشكوك وكان لا يستثيق احداً

ثم فى سنة ٣١٣ ؛ وثب سالم بن راشد على مدينة طارنته الكبيرة الشهيرة فتلقاه اهلها بدفاع حار واستماتوا دون مدينتهم ، وكانت ملحمة هائلة اسفرت عن انكسارهم واحتل المسلمون المدينة وثبتوا فيها .

فى سنة ٣١٥ ، استولى الاسطول على قلعة الخشب واستحوذ على ما كان فيها من خيرات وارزاق ، وسار يؤم مدينة سالرنة الشهيرة Salerne التى اصبحت من بعد ، بفضل علماء المسلمين اكبر كليات العالم القديم ، وكان فريد امير سالرنة يعلم ضعفه امام المسلمين ، ويدرك انه لا قبل له بمقابلة اسطولهم الذى ملأ البحر رعبا فاستنجد للدفاع عن مدينته برجال النرمان الذين اخذ نجمهم يتألق في البحر يومئذ .

صفحة بيضاء ـ القاضي ميمون — خلال هذه الايام السوداء الكدرة ، وفى وسط هذه الفتن الدهماء ؛ نرى لزاما ان نسجل صفحة طاهرة من اجل واروع صفحات القضاء الاسلامي صفحة القاضي ابى عمرو ميمون ، لترى منها ان الاضطراب ان كان شاملا كل نواحي السياسة والادارة وان البلاء ان كان مخيما على الناس من كل جهاتهم فهنالك ناحية بقيت فى معزل عن الفتن وهنالك سلطة لم تمتد لها يد الطغيان بسوء الا وهي ناحية القضاء الاسلامي الذي بقى نزيها طاهرا نقيا ، يلتجيء اليه الناس فيجدون فيه الملجأ النقي ويحتكمون اليه فلا يجدون فى انفسهم حرجاً مما قضى ويسلمون تسليما .

نروى عن رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقيا ؛ انه فى سنة ٣١٦ (١) ، ايام ولاية سالم بن راشد الشديدة القاسية ؛ توفي بمدينة سوسة القاضي ابو عمرو ميمون بن عمر ، وكان رجلا صالحا ذا دين وفضل سمع عن سحنون وكان معدوداً فى اصحابه ولي مظالم القيروان ثم ولي قضاء صقلية ؛ فلما ولي قضاءها اجتاز بسوسة ، فقال : يا اهل سوسة ، هذا كسائي وهذه فروتى وهذا خرج فيه كتبي وهذه السوداء تخدمني ومعها جبة و كساء فبهذا دخلت عليكم فانتظروا باي شيء ارجع .

قال ابو الربيع : فاخبرني سعيد بن عثمان من اهل صقلية ، انه لما وصل اليها

(١) في كتاب العبر للذهبي انه مات سنة ٣٢٠ ، بعد ان عمر مائة عام .

قلنا له : هذه دار القضاء تنزل فيها ؟ فقال : هذه دار عظماء ، ايش اعمل فيها ؟ ونزل في دويرة لطيفة ، وكانت السوداء تغزل وتبيع غزلها وتنفق عليه من فضل ذلك ؛ فاذا ضرب احد الباب خرجت اليه ، وقالت الساعة يخرج عليكم القاضي الى ان اعتل ، فاقام ثلاثة ايام لم يخرج؛ فقرع الناس الباب فخرجت لهم السوداء وقالت ادخلوا فعودوا القاضي فانه مريض ، فدخلنا عليه فاصبنا وسادتين محشوتين تبناً عند راسه وحصيرة بردى تحته ؛ فلما رآنا بكى ، وقال والله انني اجتهدت ما استطعت ، ثم خرج من صقلية وهو مريض وقال لاهلها : خلف الله لكم بعدى بخير ، فقالوا صحبك الله بالعافية ؛ فوصل الى سوسة فقال يا اهل سوسة : كما دخلنا عليكم رجعنا اليكم ، هذه كسائي وجبتي وخرجي فيه كتبي وهذه السوداء تخدمني . » (١)

قال محمد بن الحارث بن اسد الخشني فى طبقات علماء افريقيا : ادركته

---

(١) بمناسبة ذكرنا للقضاة والقضاء الاسلامي نذكر طريقة القضاء فى ذلك العصر ببلاد المسيحية :

كانت العدالة تعتمد يومئذ على احدى طريقتين : الاولى هي المعروفة باسم « حكم الله » وذلك بان يحمل المتهم بين يديه قطعة من الحديد المحمر بالنار ويسير بها بعض خطوات ثم يلقى بها الى الارض ؛ فان خلفت النار آثارها بيديه بعد ثلاثة ايام كان مجرما واستوجب القصاص وصارم العقاب ؛ وان خلت يداه من آثار النار بعد ثلاثة ايام اعتبر بريئا واطلق سبيله .

اما الطريقة الثانية فهي المبارزة العدلية ؛ وذلك بان يلتقى المدعى والمدعى عليه ، وفي يد كل منهما سيف ويتبارزان ؛ فالغالب في المعركة هو صاحب الحق والمغلوب هو الظالم المعتدي ؛ وان كان المدعي او المدعى عليه او كلاهما غير قادر على استعمال السلاح فله ان يكلف وكيلا للدفاع عنه بواسطة السيف .

مقعداً شيخاً كبيراً ، وكان له دين ومكان على سنه ، عهدى به سنة ٣٠٣ ، وانا اقرأ عليه موطأ مالك فقرأت عليه فيه كلاما لعمر بن الخطاب فجعل يبكي خشية وتواضعا ، فانى انى ذلك المجلس بين يديه حتى دخل عليه داخل ، فقال : فتحت صقلية . فجعل يتأسف . »

والمقصود هنا بفتح صقلية ؛ هو دخولها تحت طاعة الدولة الفاطمية .

مبدأ ظهور النرمان — رأينا فى مقدمة هذا الكتاب التاريخية من هم النرمان ، وكيف انتشروا فى شرق اروبا وفى غربها ، ونفتح هنا باب البحث عن تدخلهم في امر صقلية ، ذلك التدخل الذى ابتدأ امره عند انهيار الدولة الاغلبية وانتهى بزوال السلطة الاسلامية عن الجزيرة .

فى سنة ٣٠٠ ، وفى الايام الاولى من ولاية ابن قرهب كان جماعة من النرمان يرجعون لوطنهم نرمنديا من زيارة القدس الشريف واذ كانوا على مقربة من صقلية استنجد بهم البعض من النصارى هنالك ضد المسلمين ، وكانوا فى حرب فانجدوهم ونصروهم على عدوهم .

واذ راى نصارى صقلية ان امبراطور الروم قد تغافل عنهم ، وان نجداته المتوالية لم تكن بذات اثر فعال ، طلبوا الى رجال النرمان البقاء عندهم ، والاتيان بقومهم اليهم حتى ينتصر المسيحيون هنالك نصرا نهائيا على المسلمين .

اعتذر يومئذ رجال النرمان عن البقاء ، انما وعدوا بارسال جماعة اخرى من قومهم ، اشد مراسا منهم واقدر على النضال والقتال ، ثم رجعوا الى بلادهم يحملون اليها ما انتجته المدنية الاسلامية فى صقلية ، من نفائس المنسوجات الحريرية ، ومن سكر وبرتقال وثمار شهية كانت مجهولة كلها يومئذ فى اروبا ورغبوا شبانهم فى ارتياد تلك الناحية طلبا للثروة ، تحت ستار الدفاع عن حرية المسيحية ، والجهاد ضد المسلمين فكان برتقال صقلية مذكيا لنهم النرمان كما كان تين قرطاجنة مذكيا لنهم الرومان

عندما اخرج قاطون من كمه حبات من التين وخاطب المجلس قائلا : ان ارضا تنبت مثل هذه الثمرات يجب ان تكون لنا .

من ذلك الحين اخذ قرصان النرمان يجوبون تلك البحار ويترصدون الفرص التي تمكنهم من تقويض سلطان المسلمين .

استمرار الفتح فى جنوب ايطاليا — وفى سنة ٣١٧ كانت عمارة اسلامية مؤلفة من اربع سفن ترتاد البحر فلقيت اسطولا طليانيا مؤلفا من سبع سفن ؛ فداهم الاسطول الاسلامى اسطول الطليان ودحره وكانت نتيجة هذا الانتصار البحرى ان استولى المسلمون على مدينة طرمولى Termoli ومن اغرب غزوات هذا العهد غزوة القائد يعقوب ابن اسحاق، فقد سار على راس اسطول ضخم من اساطيل المسلمين، قاصداً شمال ايطاليا ، فاصطف امام مدينة جنوة Gêne درة ايطاليا اللامعة ومرساها الذى سارت بذكره الركبان ؛ ونازلها فآنس منها ضعفا ، فانزل جنده وبحارته وصادمها صدمة عنيفة مكنته من اكتافها ، فاحتلها ونصب فوق جدرانها راية المسلمين الظافرة الى حين .

الثورة — لم تكن هذه الحروب الخارجية ، وما كلل الظفر به هامتها من فخار ، لتشغل سالم بن راشد عن الحذر والانتباه ، خشية انتقاض اهل صقلية الذين الفوا الثورة ، وسكنت قلوبهم الاحقاد والضغائن ، اثر اعمال الزجر والتنكيل التى قام بها سلفه ، تجعلهم يندفعون فى ذلك السبيل لادنى مناسبة .

ولو ان سالما والذين ارسلوا به واليا من قبلهم ، راوا ان يسلكوا يومئذ سياسة اللين والمجاملة ، وجبر القلوب المنكسرة ، واسدال ستار النسيان عن الماضى القريب لكان ذلك اوفق لهم واهدى سبيلا .

لكنهم رأوا عن قصر نظر ، وسيراً من اهواء النفس واندفاعا مع نعرة عنصرية ممقوتة زادها الانتصار بطراً ان يمعنوا في سياسة العنف والشدة وان

يرهقوا الناس الى اقصى درجة الارهاق قتلا لروح التمرد فيهم وقضاء على ما فى نفوسهم من طموح .

وما رأينا فى التاريخ ان سياسة مثل هذه السياسة انتجت غير الثورة والدماء والخراب والدمار ، وما انتج الضغط كما يقولون الا الانفجار .

ان كانت بالرمة وضاحيتها قد نالها من اعمال الزجر والتنكيل ما اخمد انفاسها الى حين ، فان جهات اخرى من البلاد كانت لا تزال محافظة على قوتها الروحية تابى الضيم ، وتستنكف عن الخضوع للطغاة الجبارين ، فانتفضت ناحية جرجنتى انتفاضاً جعل سالما بن راشد يعجز عن اخماده فارسل الى المهدية يستنجد الامير ابا القاسم بن عبيد الله المهدى ويهول له امر الثورة ، ويزين له طريقة اخمادها بين الحديد والنار واسقاط كل راس تحاول الارتفاع ، فاغتنم الخليفة الفاطمى وارسل على صقلية جنداً جديداً ، سنة ٣٢٥ (١)

خليل ابن اسحاق

ولم يكن الجند الذى ارسله الخليفة على صقلية هو وسيلة الزجر والتنكيل ، بل كانت الوسيلة الحقيقية للبطش والارهاب ، متقمصة شخص الوالى الجديد الجبار العنيد خليل بن اسحاق الطاغية ؛ اوحجاج المغرب وصقلية ، انما ليس له من الحجاج بن يوسف الاجرأته على سفك الدماء والبطش على السواء بالمجرمين

---

(١) فى سنة ٣٢٣ ، تولى حكم مصر من قبل بنى العباس محمد بن طغج الفرغانى التركي الملقب بالاخشيد ؛ فاعلن استقلاله كما فعل من قبل ابن طولون وتولاها آله من بعده ، ثم تولاها عبدهم الاسود كافور الاخشيدى ؛ الذى خلد اسمه ابو الطيب المتنبي ؛ بما قاله فيه من مدائح رفعته الى السماك الاعزل ، ومن مهاجي نزلت به اسفل الحضيض ؛ وانتهى امر هذه الدويلة التي ملها الناس على يد جوهر الصقلي ؛ قائد الفاطميين الذى احتل مصر وضمها للقيروان .

والابرياء وليس له علمه وذكاؤه وفصاحته .

ان كان سالم بن راشد شديداً فى سياسته ، فانه لم يكن يصل بتلك الشدة الى درجة الفظاعة ، ولم يكن يريد سفك الدماء الا دماء الذين يعتقد فيهم النزوع للفتنة او يرى فى القضاء عليهم قضاء على الثورة والعصيان ؛ فما كادت تستقر اقدام النقمة التي تسمى بخليل بن اسحاق فى ارض صقلية حتى ادرك سالم بن راشد فداحة الخطب وامتداد الكارثة التي كان بنفسه سببا لها ؛ فاعلن مع جماعة كبيرة من القوم انه لا يشارك الوالى الجديد في اعماله ، وانتحى جانبا معلنا بنفسه الثورة التي كان استمد الخليفة لاطفاء نيرانها .

ابتدأ خليل ابن اسحاق امره باختطاط قرية فى ضواحي بالرمة ، حصنها وشاد فيها القصور وديار الجند واسماها « الخالصة » واتخذها مسكنا له ولخاصته ووجوه جنده تحميهم عند الحاجة من ثورة السكان ، واخذ لعنه الله وسود اسمه فى التاريخ الى الابد يمعن فى الظلم ، ويبلغ في الجور والافحاش درجة لم يسمع مثلها من قبل ولا من بعد ، ولم تكن نتيجة لهذه الفظاعة ازهاق النفوس ولا موت الناس جوعا فحسب ، بل انها جعلت الناس وقد رأوا مدى الكارثة التى اصيبوا بها فى اموالهم واعراضهم ونفوسهم يفرون من صقلية ومن جنوب ايطاليا ، ويدخلون ارض النصرانية ويعتنقون هنالك الديانة المسيحية ولو بصفة صورية .

ولقد قضى هذا الفاجر اربعة اعوام فى صقلية يقتل وينهب وينتهك الحرمات ويجوع ويظلم ، وكان اثناء ذلك يوالى حصار جرجنتي التى استعصت عليه ، اذ علم اهلها مآلهم ان هم استسلموا ؛ ودام الحصار اربعة اعوام كاملة ؛ الى ان ضاق عليها الخناق فاحتلها ونكل بها تنكيلا لا يوصف ، ثم اراد العودة الى افريقيا وقد اعتقد انه انجز مهمته اللعينة فحمل معه جماعة كثيرة من وجوه الجزيرة وكبرائها وعلمائها زعم انه يريد ان يقدمهم للخليفة بالمهدية ، وامر فى عرض البحر فثقبت المراكب

التى كانت تحملهم ، وهنالك بين امواج البحر المتوسط الذى جاهدوا وجاهد اجدادهم فى سبيل سيادته قضوا نحبهم شهداء الجور والفظاعة والنقمة العنصرية

ولقد حضر هذا اللعين خليل بن اسحاق مجلس الخليفة في المهدية فكان يفاخر الناس بشروره وآثامه وفظائعه ، ومما قاله تقربا الى الخليفة كانه فعل ذلك في سبيل دعوته وتوطيد سلطانه : « انني قتلت فى امارتى الف الف نسمة » . فاجابه احد علماء الدولة الشيعية ، ابو عبد الله المؤدب « لك يا ابا العباس فى قتل نفس واحدة ما يكفيك » .

الروم والنرمان — في هاتيك الاثناء ، والمسلمون يقاسون محنة لم يسبق لها مثيل ، وسيوف بعضهم تحز في رقاب البعض الآخر ، كان المسيحيون عامة ينظرون هذه الحوادث الرهيبة بعين الجذل والسرور والامل ، فكان الروم يعدون العدة لمهاجمة الجزيرة بقوة وارجاعها لسلطان القسطنطينية ؛ وكان المدد من ناحيتهم يثرى للنصارى الذين بقيت لهم في صقلية بقية ، وكان رجال النرمان من جهة اخرى ، يفدون زرافات فى مراكبهم الخفيفة فينقضون على المسلمين فى جهة بعد جهة ويغنمون منهم السبايا والاسلاب ويعودون لبلادهم .

وأخيراً ما كادت تنتهي أيام خليل بن اسحاق اللعينة ، حتى تركت في صقليه جرثومة الداء الذى سيقضى عليها بعد حين : ذلك أن جماعة قوية من النرمان نزلوا سنة (٣٢٧) ناحية من صقلية ، وتحصنوا فيها ، وجعلوها مركزاً منيعاً لما يقومون به من قرصنة فى البحر ، ومن غزوات وانتهاب في البر ، وهكذا بينما كان المسلمون يقاتل بعضهم بعضا ، كان النصارى يقاتلونهم جميعا ومن كل جهة .

ولقد كان النرمان في اول عهدهم بالغزو فى صقلية كما قال عنهم العلامة غوستاف لوبون : يشتغلون بنهب الطليان واليونان والعرب على السواء بهمة ونشاط دونهما همتهم ونشاطهم في الدفاع عن الدين (المسيحي) .

عطاف الازدي

ارسل به المنصور واليا على صقلية ، لكي يستمر على سياسة اسلافه الذين سبقوه بشر فى تلك الولاية منذ تمهد الامر لدولة الفاطميين واستولى رجال كتامة بغلظتهم على زمام الملك .

وكانت صقلية يومئذ تسبح فى بحر من الدماء ؛ فان كان رجال الفاطميين رأوا ان لا سياسة لهم هنالك الا سفك الدماء والامعان في الظلم والزجر والارهاب اقتلاعا لجذور الثورة وخنقا لكل فتنة مقبلة في مهدها ؛ فان البقية الباقية من رجال صقلية الاولين رأوا ان الشدة لا تقابل الا بالشدة والشر لا يمنع الا بالشر والدم لا يغسل الا بالدم ، فكانت ثوراتهم تتوالى بعد سكون قليل اثر عمليات الارهاب السالفة ؛ وكان الروم كما رأينا قد استضعفوا المسلمين فى هذه الايام السوداء وتكالبوا عليهم وامتنعوا عن دفع مال الجزية الذى تجمع بذمتهم واخذوا يستعدون الملحمة الكبرى ، والنرمان من جهتهم كانوا يحصنون مركزهم الذى استولوا عليه بسبب الثورة والقلاقل بين المسلمين ، ويستعدون كذلك للملحمة الكبرى واستخلاص صقلية لحسابهم الخاص ، بينما كان الروم يريدون استرجاعها تحت سلطانهم .

لم تكن ايام عطاف الازدى طويلة بصقلية ولم يستطع ان يعمرها على قصرها بعمل يذكر ، وكان اهل بالرمة قد ارادوا التخلص نهائيا من هذه المظالم والشرور والآثام ، فتآلفوا وتحالفوا حول عصبة بنى الطبرى وثاروا بعطاف يوم عيد الفطر سنة ٣٣٥ ، فالتجأ الى قلعة الخالصة وامتنع فيها ؛ ثم سار وفد منهم الى المهدية يفاوض المنصور فى شأن صقلية واقرار الحكم فيها على اسس مبينة من العدل الاسلامي والتساوي بين الجميع ، وحرية المعتقد والمعاملات ؛ واوصى الوفد رجال بالرمة ان لا يقبلوا اي عامل يفد عليهم من المهدية الا بعد انتهاء المذاكرات وورود رسائل منه تشعرهم بذلك .

لكن ازمة صقلية كانت قد انتهت الى حين ؛ وادرك المنصور بالله اسماعيل ابن القاسم بن عبيد الله خليفة المهدية ان تلك السياسة التى سلكها اسلافه لم تات الا بعكس النتيجة المطلوبة ؛ وان قطراً اسلاميا هو طليعة المسلمين نحو الارض الاروبية بوشك ان يسقط برمته تحت قبضة النصارى بسبب تلك الشدة وذلك الارهاب ؛ فقبل ان يصل الى المنصور وفد صقلية ، وعندما بلغه نبأ ثورة بالرم على عطاف الازدى ، بادر بتعيين فاضل من فضلاء الامة ووجيها من وجوه الدولة ، هو الحسن بن علي بن ابي الحسين الكلبي واليا على صقلية وممثلا الدولة فيها ؛ على ان يسلك هنالك سياسة جمع الشمل واتفاق الكلمة والاستعداد لمقارعة النصارى الذين كانت دعوة الحرب الصليبية ضد الاسلام والمسلمين تلهب قلوبهم وتتقد فى افئدتهم نارا .

وصل الحسن صقلية مفتتحا بها عصراً جديداً كان عصر ازدهار وجهاد وصراع سنة ٣٣٦ (٩٤٨) وانتهى بذلك عصر الشرور والآثام والمصائب والفتن والتنكيل والارهاب ؛ الذي دامت مدته نحوا من ٥٠ سنة ، تتخللها لا محالة فترات راحة نسبية ؛ وكانت هذه الفترة التعسة في تاريخ صقلية من اكبر اسباب انهيار ملك المسلمين فيها وتغلب النصارى فيما بعد عليها ؛ وذلك لان المسلمين قد استنزفوا كل قواهم فى تلك الثورات المتوالية ولان اعمال الزجر والتنكيل قد ذهبت باحسن القوم واردت اكثرهم قوة واشدهم نفوذاً ؛ ولان الخلاف البين بين المسلمين : بين سنة وشيعة وبين عرب وبربر قد توطن فى النفوس وتوطد بكيفية لم تستطع صقلية التخلص منها فيما بعد الا بصفة سطحية ؛ ولان المسلمين خلال تلك السنين التعسة قد تركوا امر النصارى وامر الجهاد فتمكن هؤلاء تمكنا جعلهم يعيدون الكرة على المسلمين ؛ فان باء الروم بالاندحار فقد نال النرمان آخر الامر كل الفوز والانتصار .